قبيل الغروب

بقلم عبد المجيد لطفي

كنت أتدفأ شمسا خريفيـــة ساطعة في ركن من حـــديقة بيتي مستسلما لنوع بليد من الراحـــة تستحوذ على من تنقصهم الحيلة لمواجهة مشكلاتهم قبل مشكلات الاخرين !

ـ حسنا جدا ، فها أنتذا يا رجل ، عجوز تماما ، وليس لك اي حق ، في أي نوع من المكابرة ، ان الادعاء بفتوة القلب أكـــذوبة بالية يطرحها الفانون على أنفسهم من قبيل المخادعـــة !.. ان جوهر الحياة قد نضب فيك فدع عنك هذه الاحلام الصفراوية العليلة ، فان اولادك يملأون الحياة بضجة الحب !

ولكن لماذا يجب أن أستسلم ؟.. ما زالت أشرعتـــي ممتلئة بريح مواتية وشاطىء بعد بعيد !

وانتهيت من محاورة نفسي فصحت أحـــدث ضجة تنبه الغافلين الى وجودي ـ أين هي القهوة يا امراة ! قلت لكـــم الف مرة يجب ان تكون كثيفة السكر ليفهم الطبيب النـــاشيء ـ ولدك البار ـ ان رجلا سمينا ومسنا مثلي لا يرهب آفة السكّر ، أبدا لا يرهب شيئـــا مـــن آفات الشيخوخة !

جاءت صغرى بناتي بآنية من الفضة ـ اثرية عائلية لا أدري مـــن أين وصلت الينا متسلسلة هكذا ـ وفيها قدح من القهوة وضعته أمامي بوجه فيه غضب مزيج بالحزن كعادة الفتيات المراهقات وقالت متشفية : هذه قهوتك الرائعة ... ولكنك لـــم تعد تقرأ ... الا ينقص جلستك هذه ... كتاب !

ـ طيب وأين هو الكتاب الذي يقرأ هـــذه الايام ؟.. ان عيني مليئتان بما يشبه الضباب ... ومع ذلك فأين هو ذلك الكتاب السخيف الذي جاء به أخوك أمس ؟.. علي به ، انه على الاقـل يذكرني بجيـل الآخريـن !

يا لها من قهوة كثيفة تافهة النكهة حتى لكأنها حثالة شاي عتيق ! ان هذه المرأة لم تتعلم سوى الثرثرة ومعظم النساء كذلك ، ومع هذا فان لهن دعوى عريضة في خدمة البيت والمجتمع !

وفي المطبخ الذي فتحت واحدة من نوافذه العـــالية المطلة على الحديقة ، حيث أجلس لسوء الطالع ، كانت تفوح رائحـــة شواء أخاذة يتندى لها الفم البطر فكيف بي وأنا جائع !

ترى ماذا يشوي هؤلاء اللاعين الصغار سوى الطيور المسكينة التي تقع في شباكهم ؟ ان خبرتهم في صيدها هي مثل خبرتي فـــي التعرف عليها من دخانها ورائحة شحـــومها ... تعسا للادب ! لماذا تريد تلك الصغيرة البرمة أن أظل أواصل القراءة في مثل هذه الكتب التافهة ؟..

لم تمض سوى دقائق حتى عادت البنت مقطبـــة الوجه مشدودة الشفتين ، ولا بد انها أغضبت من جديد ، فقلت :

ـ وماذا ايضا وراء هذه التقطيبة ؟!

ـ جئت أسترد الفنجان !

ـ ولكن لم أنته من شربه بعد ...

ـ أمي هي التي تقرر الزمن اللازم لشرب القهوة ، وترى اذا ترك فنجان القهوة خاليا أمامك جعلت منه منفضـــة للسكائر !.. حقا انك تفعل هـــذا في كل آنية فارغة يا أبي !

ـ اذا كان الامر هكذا ... ويعني هذا انني ثقيل جـــدا فعليّ أن ابحث عن مكان أجد فيه من يفهمني ... يا للحشرات الصغيرة التافهة ولكن ما أقسى ما تحمل من سم !.. انني لا أسيغ مثل هـــذه القهوة الحثالة ... ان القهوة الفرنسية رائعة القوام ... أي كلية ستختارين يا ذكية الفؤاد ؟!

سكبت ما في الفنجان على بعد فليـــل من قدمي ، على بقعة مبلطة بقطع ومكسرات من القاشاني والموزائيك العتيق متعمدة اغاظتي :

ـ بيني وبين الكلية اكثر من عـــام ، انني أقرر كل شيء في وقتـه المنـــاسب !

ـ يا للخنازير الصغيرة التي تشبه خنازير المختبرات ومـع ذلك لا تكف عن نشاطها على الرغم من التجارب الكريهة التي تمر بها .

واكتفيت بهذا المقدار مـن السباب ، فالاب الحصيف حين يكبر بما يدنيه من الشيخوخة عليه أن يتمسك ببعض المظـــاهر والا انهار الافق كله وأطبق عليه ! وقد وجدت بالتجربـــة ان الخشونة فيها من سمات القوة ما ينفع مع هؤلاء الفتية وقد ملأ الزهو أعطافهم ! واستسلمت من جديد الى أحلام لذيذة كانت البنت الغاضبة وفنجان القهوة الرديئة قد بددتها من ذهني ، وشعرت لدفء الشمس لذعة هزتني عندما مرت بي ريح طائشة باردة فجأة ، ثم عاد كل شيء الى روائه الرتيب !

قلت أحاور نفسي وأسليها : طيب وماذا اذ يكبر المرء ؟ وحتـى حين يشيخ وترتجف ركبته وتوجعه مفاصله ! انه اذ ذاك يرد للطبيعة المتأخرة في صنع الاشياء الجيدة ما صنعت من بقايا بالية ، ولا فخر للطبيعة فيما تصنع ، فالانسان نفسه وهو من صنعها لهو أقوى مـن نفسه بما يترك وراءه من خوالد الاشياء ويبقيها جديدة دافئة الملمس حية المنظر شديدة الرواء والعطاء .

ولكن مهلا ، تعال معي أيها الرجل ، يا مهـــدم الاعضاء ، ماذا ستبقي لبنيك غير ذكرى فنجان قهوة مملوء بأعقاب السكائر وغير ثوب فيه حروق التبغ من عشرين مكانا ؟ بيد انه لا بد للحياة الرتيبة مـن جديد ، فهوذا جرس الباب يدق ، ومن هنا عبر ممر الكروم الحمـراء وهي تجفف أوراقها المعلقة على تسقيفة خضراء أرى البـــاب المفتوح على ضلفتيه .

ـ فقيرة أيضا ؟.. أي موسم غريب هذا للمتسولين ؟.. تعالي يا ((سمية)) وانظري ماذا تريد الفقيرة ، وخـــذي من باب الاحتراز عشرة فلوس ، انها هبة مناسبة ، فاذا رفضتها كما فعلت متسولة الصباح فاغلقي من دونها الباب ، صحيح أن الدنيا غاليـــة ولكن لسنا من سلالة حاتم ثم ان مواردنا ...

ـ كفى يا أبي ، أرى انها ستقتنع بما تجود به . دع عنك هذا الحوار ضد شيء لم يقع !

أخذت ((سمية)) المبلغ بإباء مستصغرة شانه وقالت :

ـ سأمضي وادفع المبلغ ، ومن الافضل ان نغلق باب الحديقة ، فان من يرى مدخل هذه الحديقة الفسيحـــة وأنت كالامراء في يدك الصولجان ، من حقه أن يطمع منك بالكثير ...

كانت ((سمية)) السليطة الجارحة اللسان على حق ، فقلت وأنا أبتلع ما جف او ما تبقى من ريقي : ـ افعلي ما ترتأين !

وغابت سمية وقتا قصيرا ثم عادت وعـــلى شفتيها ابتسامتهـا الساخرة ، وقالت متشفية :

ـ تصر علي الدخول ، ولديها ما تريد أن تسر به اليك ... هكذا

قـــالت !..

ـ وما شاني بمتسولة ؟.. أيعني هذا انها رفضت المبلغ أيضا ؟

ـ طبعا ، انها لم تات لمثل هذا ... تقول انها من بعض معارفك ! هل اسمح لها ؟..

ـ يا لوقاحة بعض الناس هذه الايام ... دعيها تدخل ، ان الحياة مليئة بالغرائب ... ثم انها ... ايه على كل حـــال ... لتتفضل وساستقبل الاميرة هنا !..

عندما عادت المرآتان واقتربتا من مجلسي شعرت بهزة من الخوف والقلق وحتى من الانهيار ، فانا أعرف هذا عندما أشعر بالدفء يزايل قدمي داخل جورب الصوف !

ركزت القادمة نظرات حادة ثاقبة فـــي وجهي ثم تنهدت وهي تجلس على دكة من الفرميد الاحمـــر ، كان شذرواتا يوما ما وقالت :

ـ وأنت أيضا قد شخت ... صارت لك الحـــال التي توقعت أم انك نسيت ؟! قلت لك ان كلينا فان وان وجهينا سيصيران أشهبين كالجلدة المجعـدة ... نتيبس ... كان كل ما علينا أن ننتظر وقع خطى الزمن.

ـ لا أكاد أتـــذكر ... لا أكاد أعرف ... اختصري أرجـــوك ماذا تريدين ؟

ـ مهلا يا صديقي العزيز مهلا ، فانا التي قلت ذلك عنك وعني وكنا ... ولكن ذاكرتك على ما يبدو اكثر شيخوخة ...

ـ لقد بعد الزمن ...

ـ اذن علي أن أقدم مثبتات جديدة .

نظرت الى وجه سمية نظرة صارمة غاضبة ، ولا بد انها كـــانت نظرة مخيفة ، فتراجعت الى الوراء آخذة طريقها الى الداخل من الايوان المكشوف دون أن تنبس كلمة .

ـ والان ونحن على انفراد ... هل تتذكر ؟..

ـ قلت ان الزمن ... يا له من عمر مليء بالاحداث ...

ـ ومع ذلك فان مظهرك الخـــارجي لم يتغير كثيرا سوى هذه السمنة التي طرحت عليك بعض المهابة ... ومع ذلك تبدو سعيدا ، فانت تكرر نفسك في أولادك !..

قلت وانا لا أزال أجهل من هي : ـ وانت ؟..

ـ ليس لي غير واحد ... رجل في مثل سنك ... أصغر قليلا غير انه سقيم على شفا الهلاك !

ـ ولهذا جئت الي !

ـ نعم لهذا جئت اليك .

ألقت امامي طغراء فضية تحمل شعلة المعرفة وقد حملت في الوجه الثاني عبارة ثناء تنبىء انني في تلك الايام الخالية قد ربحت مسابقة شعريـــة !

ـ فاطمة ... أانت هي حقا ؟

ـ كفى قلقا ... لم أأسف اذ لم تعرفني ... كما لم اعد بحاجة الى هذه الذكرى ، ضمها الى مجموعتك فقد يزهو بها بعض بنيك !

كانت القطعة الفضية لماعة ، محفوظة بعناية او مجلوة حديثا وعلى لالائها تذكرت ـ فاطمة ـ وجهها الخمري المستـــدير كالقمر يتـوهج ويتصبب عرقا وهو يتعدو ... تصعد التلة عدوا عبر القنطرة الحجرية التي يجف تحتها الماء في الصيف وهي غير عابئة بالمرتفع ... والاحقها وانا الهث وانا بطل كرة !..

فاطمة هذه اذن هي فاطمة تلك الايام ... تماما ... لم يبق منها سوى القليل ... ما أبشع ما تنزل الايام بنا من خراب ...

كانت البنت الثالثة بين خمس آخوات . غضة الاهاب متفـــائلة وجذابة ، تملأ فقر الاب وتعاسة مهنته الشحيحة جمالا ورضى فتحول مورد العائلة الضيق الى نوع من البهرج بما تضفيه على الاسرة كلهـا من جمال الكفاف !

بددت صمتنا الطويل بعد حين قائلة : ـ نعم ، انا هي يا سعدي ! انا فاطمة ...

ـ حسنا ، انه لقاء أشبه بماتم ... اننا معا انقـــاض ... بقية تالفة ، ولقد رفضتني ذات مرة . كنت عنيدة الارادة ، كان قلبك معـه وهو أقوى منك . وحتى بعد الذي حدث كنت على استعداد للنسيان.. وما زلت ، في هذه الشيخوخـــة وهي تأخذ طريقها نحو الغـــروب ما زلت ... فهل ترفضين من جديد ؟.. وبصدد أولادي انهم كبار وفي غنى عني ، وأنت لست كـــذلك كما أرى ، لست غنية عـــن عجـــوز يستنـــدك ...!

ـ انني بحاجة الى مساعدتك فقط ... فما زلت في عصمته ...

ـ وتحبينه ؟!

ـ كأول يوم أحببته فيه ... وهو الان مريض جدا ، ولا اريد بهذا أن أعيد اليك أملا .

تنهدت وأشحت بوجهي عنها وفككت كفها من بين يدي وشعـرت بالبرودة والفراغ بينما أخذ جمالها الغابر يضيء من جديد جـــوانب الظلام والنسيان في نفسي !

فقالت متضجرة حزينة : ـ لا تهرب عني بـــوجهك هكذا ، انني شديدة الحاجة اليك ، وقد بحثت طويلا عنك الى أن وجدت هذه الدار..

ـ اذا كان هذا ، فعندي من المال ما قد يساعدك . كم تحتاجين مـــن مـــال ؟..

ـ الى شيء من نفوذك الادبي فقط !

ـ نفوذي الادبي فقط ... وأين تريدين هذا ؟.. مـــاذا أستطيع لمريضك ؟..

ـ خذ له أسبقية في الدخول الى مستشفى الامراض الصدرية ! سمعت انه الان يلفظ صدره على أقساط موجعات ! ولن أنسى لك هذا الصنيع ! فأنت في بغداد وعشت فيها طويلا ، بينما ذهبت معه الـــى ضيعة أبيه في أقصـــى الشمال ... وضاعت الضيعة فـي منتصف عمرنـــا ...

ـ ولم تنجبي له ذرية ؟..

ـ هكذا أراد الله ... ولكني أنسيته الذرية ... انني له الان كل شيء ... هل تفهم ماذا تعني هذه الكلمة ؟..

ـ أفهم هذا جيدا ... أفهمه بصورة واضحة وسأفعل ما تريدين. ان التعاسة مسألة تقديرية ... ومن الصعب أن تفهمي مثـــل هـــذه الاشيـــاء ...

أقبلت « سمية » من جديد وقد استبد بهـــا الفضول وقالت برفق : ألا تحتاج شيئا يا أبي ؟..

ـ بلى يا عزيزتي . ورقة جيدة أكتب بها توصية ، مجرد توصية الى مدير مستشفى ...

وقضيت ما تبقى من النهار بطوله حيث كنت ، لم يعـد هناك من قيمة للزمان والمكان . فثمة غاشية من التفاهة تجردنا أحيانا من أنبـل احساساتنا ، فعبر الممر الطويل الذي فرشت أرضيته الصلبة بالاوراق الميتة ، عبرت فاطمة تحمل توصية رقيقـــة لادخال زوجها المريض الى مستشفى الصدر ، تاركة وراءها ملء غرارة من الهواجس والاحزان !! أفهذا هو الذي يسمونه الحب الخالد ؟ أهـــذا الوفاء الاسطورة هو الذي يجعل للحب الكريه المستبد مثل هذه الابهة الرفيعة ؟ أفهذا هو الخلود الذي لا نظير له للقلب البشري في حياة مجهولة مبجلة ؟

ثم ، أهذا أنا ؟.. عشبة هشة دب اليها الجفاف لتسقط مـع غيرها في جوف مظلمة تكمن وراء مجهول بعيد الغـــور ... وراء هذا الفناء الغامض الذي يزداد تعقدا كلما حلت المعقدات والمستعصيات ؟!

وانتهيت الى وجودي اثر خفقة رقيقة على كتفي وصوت « سمية » وقد امتلأ بما يشبه النحيب :

ـ لقد برد الجو يا أبي ، قم الى الداخل ، فهكذا هي الحياة !

فنهضت أتكيء على كتفها الاشم أستمد منها القوة وقلت :

ـ هل عرفت يا سمية ؟!

فقالت بصوت رخيم يمج بالحزن : ـ تقريبا يا أبي ...

وأجهشنا معا بالبكاء !

عبد المجيد لطفي